

نفحات القرآن

[292] الطيرُ يُسَبِّحُ وأنا صامت! يقول في الآية الاولى مؤكداً على ان تحليق الطيور في جو السَّماءِ خلافاً للجاذبية هو آيةٌ من آياتِ (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ) (1). * * * والآية الثانية تتشابه مع الاولى من عدة وجوه، إلا انَّه يُلاحظُ فيما بينهما اختلافاتٌ أيضاً، ففي هذه الآية يدعو الناس (لا سيما المشركين) إلى تفحص اوضاع الطيور، هذه الموجودات التي تنطلق من الارض خلافاً لقانون الجاذبية، وتتحرك مسرعة بكل يُسر في جو السَّماء لساعات واحياناً لاسابيع، وحتى احياناً لعدة شهور بدون توقف، حركةً رقيقةً وسريعةً، بنحو يبرهنُ على انها لا تواجه مشكلةً في عملها. فيقول: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ) (1). فلا أحد سوى الرحمن الذي عمَّت رحمته كلَّ شيء، يستطيع أن يُمسكهُنَّ هناك: (ما يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرُّحْمَنُ). أجل. . الذي مَدَحَها كلَّ ادوات الطيران، وعلَّمها طريقته واسلوبه، كما وضعَ قوانين وانظمةً تستفيدها فتحلِّق بيسر وسهولة. فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكلَّ شيء (إِنَّه بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ). وابتداءً من الذرات حتى المنظومة الشمسية، والمنظومات الأخرى الجارية، ومن النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات العملاقة، الكل والكل يستمر في وجوده بتدبيره جلَّ وعلا، التدبير الذي يُطلعنا في كلِّ مرحلة منه على آية جديدة من علمه وقدرته تبارك وتعالى، وينفي كل اشكال الاحتمال بوجود الصدفة وقدرتها على الخلق، ويملأ القلب بحبِّه والايمان به. ويُمكن ان يكون التعبير بـ (صافات) و (يَقْبِضْنَ) اشارة إلى وضع الطير، حيث يبسطنَ أجنحتهنَّ تارةً، ويجمعنَّها أخرى، ويقدرنَ على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويردُّ هذا الاحتمال أيضاً بأنَّ يكون اشارة إلى صنفين من الطيور: الطيور التي غالباً ما تكون اجنحتها مبسوطة، وتركبُ امواجَ الهواء، وفي نفس الوقت تسيرُ في كلِّ اتجاه بسرعة، فكأنما هناك قدرةٌ خفيَّةٌ تُحرِّكُها لا نراها باعيننا، والطيور التي تخفق اجنحتها باستمرار اثناء طيرانها، وبعض الطيور حالةٌ وسطٌ بين هاتين الحالتين اثناء الطيران (1). * * * وفي الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بصدد الآيات التوحيدية لحياة الطيور إذ يخاطبُ النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) قائلاً (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الصَّيَّغَةَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) (والطَّيْرِ صَفَاتٍ). الطيور التي تتحرك في الجو صفوفاً، بجلال وعظمة وجمال ولا تتعبُ العين من مشاهدتها ابداً، فهي ترسمُ اشكالا هندسيةً مختلفة على صفحة السماء بحيث تذهلُ الإنسان، إذ قد تطير المئات بل الآلاف من

الطيور وتغيّرُ طريقها باستمرار من خلال أمر خفيٍّ من دون أن يحدث اصطدامٌ فيما بينها. ويضيف في سياق الآية (كلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ) (2). نعم. . فلكلٍّ منها صلاةٌ وسرٌّ ودعاءٌ وحاجات في عالمها الخاص، ولكلٍّ تسبيحه وتعظيمه وثناؤه، ومن المعروف أن ذرات وجود أيٍّ منها وبناء مختلف أعضائه وحركاته وسكناته تُخبرُ عن مُبدءٍ عظيم يجمعُ كافة الكمالات ومُنزَرَهُ عن جميع النواقص، وهي دائمةٌ التَّسبيح بحمده بلسان حالها. ويعتقد بعضهم أن حَمْدَهَا وتسبيحها وصلاتها عن وعي، ويعتبرون لكلٍّ موجود حتى الذي نَحسبُه جماداً وبلا روح، عقلاً واحساساً، بالرغم من جهلنا به، كما نقرأ في مكان آخر: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (1). * * * وأشار في الآية الرابعة والاختيرة من البحث إلى مسألة جديدة أُخرى من عجائب عالم الطيور فقال: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ). والتعبير بـ (أُمَمٌ) جمع "أُمة" يدلُّ على أن لها عقلاً واحساساً في عالمها، والتعبير بـ (أمثالكم) يؤكد هذا المعنى أيضاً، لأنها تشابه الإنسان في مسألة الإدراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذي ورد في الآية السابقة، بأنَّ لها تسبيحاً ودعاءً عن وعي في عالمها الخاص بها (2). أنَّ القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقي الحيوانات، تؤيد بأنها ذات ذكاء وشعور. لأنَّ: الكثير من الحيوانات تعمل بمهارة ودقة في بناء بيوتها وجمع غذائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسعيها لسد حاجات حياتها الأخرى بدقة ومهارة لا يُصدق معها، صدور هذا العمل عن غير عقل وشعور؟. وهي تبدي ردود فعل مناسبة إزاء الأحداث التي لا تمتلك تجربةً سابقةً حيالها، فمثلاً نرى أنَّ الخروف الذي لم يَرَ ذئباً طيلة حياته له وعيٌ كاملٌ عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسه بكلِّ وسيلة يستطيعها. لقد قاموا بتربية الحيوانات من أجل غايات مهمة، كالطيور التي تنقل الرسائل، والحيوانات التي تُرسلُ إلى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب الشرطة التي تستعمل للكشف عن المخدرات، وملاحقة المجرمين وأمثال ذلك، فتُربى هذه الحيوانات بنحو قد تكون أفضل وأكثر ذكاءً من الإنسان في إنجاز مهمتها، حتى في هذا العصر الذي تنوعت فيه معدات كشف الجرائم لم يجدوا في أنفسهم غنىً عن هذه الكلاب! خصوصاً أنَّ بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة، وبعض حيوانات البحر كالأسماك الحرَّة التي تقطع آلاف الأميال في أعماق البحر باتجاه منشئها الأصلي أثناء وضع البيوض، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالأسرار بحيث لا يمكن نسبتها إلى الغريزة، لأنَّ الغرائز تُعتبر عادةً مصدرًا للأعمال ذات النَسَق الواحد، في حين أنَّ حياة هذه الحيوانات ليست كذلك، وعمالها دليلٌ على فهمها واحساسها النسبي. يقول مؤلف تفسير "روح المعاني": "أنا لا أرى مانعاً من القول بأن للحيوانات نفوساً ناطقة وهي متفاوتة الإدراك

